# معالم وسطية الفكر العقدي بالغرب الإسلامي

## "ابن خمير السبتي نموذجا"

أ. موفق عبد الرحيم

كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي محمّد بن عبد الله

فاس-المملكة المغربيّة

**الملخص**

بالرغم من أن المذاهب العقدية غير السنية كالاعتزال والتشيع لم تعرف طريقها إلى الغرب الإسلامي إلا في حدود ضيقة وفي مناطق محدودة، فإن البيئة المغاربية لم تكن بمعزل عن التدافع الفكري والعلمي في علاقته بقضايا العقيدة، وهكذا تبنى علماؤنا العقيدة الأشعرية لتلمسهم المقاصد النبيلة التي تأسست عليها هذه العقيدة السنية، والمنهج الوسطي الذي تميزت به عبر تاريخها الحافل فاعتمدوها عقيدة رسمية، ونافحوا عنها وانتصروا لها.

لقد أدرك علماء الغرب الإسلامي أن العقيدة الأشعرية في صيغتها النهائية ما هي إلا امتداد طبيعي لمذهب أهل السنة والجماعة، وأن الاقتداء بأئمة هذه العقيدة السنية يسمو بالمعتقد إلى تمثل روح المنهج القرآني في تقرير العقائد الدينية في وسطية واعتدال دون غلو ولا تحريف، ومن بينهم ابن خمير السبتي (ت:614هـ) رحمه الله الذي قدم جهودا حثيثة في التأصيل لهذه العقيدة السنية والدفاع عنها، كما تميز بمنهجه الوسطي في تقرير قضايا العقيدة، وأخلاقه العالية في مناظرته لخصومه، وبراعته في الحجة والاستدلال، كما كان له رحمه الله دور فعال في مواجهة التيارات المتطرفة التي ابتعدت عن المعايير العلمية في فهم نصوص العقيدة وضبطها، وانحرفت بها في اتجاهات باطنية غالية.

**الكلمات المفتاحية:** المنهج الوسطي؛العقيدة الأشعرية؛ الفكر الاعتزالي؛ ابن خمير السبتي.

***The core features of moderate creed thoughts in Islamic West***
***Ibn Khameer al-Sabti as a case study***

**Abstract:** Although the non-Sunni Schools of Islamic theology like Shia and Muʿtazila had little impact and visibility in the Islamic west, the Maghreb area was by no means distant from the intellectual and scientific contestation in relation to issues of faith. Our Islamic scholars have adopted Ashariyah doctrine due mainly to its noble purposes that form the basis of the Sunni doctrine and its moderate approach which has marked its long history. As such, the Islamic scholars have adopted and defended it as an official doctrine.

The scholars of the Islamic west have realized that Ashariyah doctrine in its final version is no more than a natural extension to the doctrine of Ahl al-Sunnah and Jama'ah. Following the the sunni doctrine of these scholars enhances beliefs and visualize the spirit of Quranic approach in dealing with religious beliefs in a moderate approach without exaggeration or distortion. Among these scholars is Ibn Khameer al-Sabti who is credited for laying the foundations of this sunni doctrine and defending it. He is also known for adopting a moderate approach regarding issues of faith and creed. Ibn Khameer is also renowned for his high ethics while debating his adversaries and his proficiency in argument and reasoning. Another attribution is his effective role in combating extremist ideologies which have evaded scientific criteria in understanding and reviewing texts of Islamic doctrine

**Key words:** Moderate approach; Ashariyah doctrine; Muʿtazila thought; Ibn Khameer al-Sabti;

**مقدمة:**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله، سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما بعد:

مع التطور الذي شهدته بيئة الإسلام الأولى، وحصول تلاقح عام مع الشعوب والثقافات غير العربية، ظهرت الفرق الكلامية في سياق تحد حضاري وفكري شهدته المجتمعات المسلمة، وخاصة تلك التي تأوي ديانات متعددة ومذاهب متصارعة، بغية المنافحة عن أصول الدين والمعتقد بالأدلة والبراهين التي تناسب طبيعة تلك المجتمعات، لكن هذه الفرق تباينت في مناهجها وأصولها، فمنها من اعتدّ بالنظر العقلي وغال في التمسك به، ومنهم من اكتفى بدلالة النص الظاهر وأغلق كل مسالك النظر.

وفي هذه الظرفية الدقيقة والحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية ظهر أبو الحسن الأشعري ووجد نفسه محاطا باتجاهين متضادين من النصيين والعقليين، واعتبارا لما امتاز به منهجه في تقرير قضايا العقيدة من وسطية واعتدال إذ زاوج فيه بين صحيح المنقول وصريح المعقول فقد وفقه الله لجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم.

ونظرا للترابط الوثيق بين المشرق والمغرب، فإن البيئة المغاربية لم تكن بمعزل عن هذا التدافع الفكري في علاقته بقضايا العقيدة، فبالرغم من أن بلاد الغرب الإسلامي لم تعرف المذاهب العقدية غير السنية كالاعتزال والتشيع إلا في حدود ضيقة وفي مناطق محدودة، إلا أن علماء الغرب الإسلامي تبنوا العقيدة الأشعرية لتلمسهم المقاصد النبيلة التي تأسست عليها هذه العقيدة السنية، والمنهج الوسطي الذي تميزت به عبر تاريخها الحافل فاعتمدوها عقيدة رسمية، ونافحوا عنها وانتصروا لها.

لقد أدرك علماء الغرب الإسلامي أن العقيدة الأشعرية في صيغتها النهائية ما هي إلا امتداد طبيعي لمذهب أهل السنة والجماعة، وأن الاقتداء بأئمة هذه العقيدة السنية يسمو بالمعتقد إلى تمثل روح المنهج القرآني في تقرير العقائد الدينية في وسطية واعتدال دون غلو ولا تحريف، امتثالا لقوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة/ 143).

وفي هذا السياق ارتأيت دراسة معالم الفكر الوسطي المعتدل عند عالم من علماء العقيدة الأشعرية بالغرب الإسلامي، ووقع اختياري على ابن خمير السبتي (ت:614هـ) رحمه الله، لما قدمه من جهود حثيثة في التأصيل لهذه العقيدة السنية والدفاع عنها، فقد صنف رحمه الله في علم العقائد على الطريقة الأشعرية: " مقدمات المراشد إلى علم العقائد." و " تنزيه الأنبياء." ، والكتابان شاهدان على منهجه الوسطي، وأخلاقه العالية في مناظرته لخصومه، وبراعته في الحجة والاستدلال، كما كان له رحمه الله دور فعال في مواجهة التيارات المتطرفة التي ابتعدت عن المعايير العلمية في فهم نصوص العقيدة وضبطها، وانحرفت بها في اتجاهات باطنية غالية.

وقد قسمت البحث وفق الخطة التالية:

**المبحث الأول: ابن خمير السبتي: حياته، وإسهاماته العلمية.**

المطلب الأول : التعريف بابن خمير السبتي.

المطلب الثاني: ثقافته ونتاجه العلمي.

**المبحث الثاني: معالم المنهج الوسطي عند ابن خمير السبتي في تقرير قضايا العقيدة.**

المطلب الأول: مفهوم التوسط والاعتدال.

المطلب الثاني: معالم وسطية ابن خمير في تقرير قضايا العقيدة.

**المبحث الثالث: التوفيق بين النقل بالعقل من أهم سمات وسطية الخطاب الأشعري.**

المطلب الأول: مفهوم العقل عند المتكلمين

المطلب الثاني: مرتكزات الخطاب الأشعري في التوفيق بين العقل والنقل.

**المبحث الأول: ابن خمير السبتي: حياته، وإسهاماته العلمية.**

شكلت نهاية القرن السادس الهجري وبداية القرن السابع، مرحلة جديدة في سيرورة تطور المذهب الأشعري بالغرب الإسلامي، تمثلت في ظهور فكر أشعري يطبعه التوسع في عرض الأفكار وتحليلها ومناقشة الجزئيات والوقوف عند النكت ودقائق الأمور. كما عرفت انتعاشا لظاهرة التأليف، اهتم فيها بعض الأشاعرة بالشروح خاصة شروح كتاب الإرشاد للإمام الجويني، ويعتبر فكر ابن خمير رحمه الله تعالى نتاجا لانتشار المذهب وتغلغله، وظهوره في طابعه الرسمي لدولة الموحدين. فمن هو ابن خمير؟ وما هي إسهاماته العلمية؟

**المطلب الأول : التعريف بابن خمير السبتي.**

هو أبو الحسن علي بن أحمد بن خُمَيْرْ الأموي السبتي، توفي سنة ستمائة وأربعة عشر(614هـ)، حسب ما ذكره ابن الشعار في قلائد الجمان:" علي بن خمير أبو الحسن السبتي كان فقيها مالكيا شاعرا أصوليا عالما أديبا لغويا توفي سنة 614هـ"[1]، وذكره ابن الآبار في كتابه التكملة: "علي بن أحمد بن خمير من أهل سبتة يكنى أبا الحسن دخل الأندلس وكان أديبا أصوليا، توفي بعد الستمائة بيسير."[2]

ولد ابن خمير بمدينة سبتة حيث حفظ القرآن في صغره، ثم انتقل لتلقي العلوم التي كانت تدرس بمدينته من نحو ولغة وشعر وغيرهما، وانسجاما مع توجه دولة الموحدين

1- قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان لكمال الدين أبو البركات المعروف بابن الشعار(387/4-388) ت: فؤاد سزكين (1990)

2- التكملة لكتاب الصلة لمحمد عبد الله القضاعي الأندلسي المعروف بابن الأبار(ص:589) ت: عبد السلام الهراس ط، د:المعارف الدار البيضاء (د- ت)

الداعم للعلوم التأصيلية اتجه لتحصيل هذه العلوم (علم الكلام، علم أصول الفقه، علوم القرآن، علوم الحديث) لكنه نبغ أكثر في علم الكلام وفي علوم اللغة خصوصا الشعر.[1] ومن الذين أخذوا عنه نجد:

– أبو عبد الله محمد بن عبد الله الآزدي السبتي وهو من أشهر أعلام سبتة في وقته، ولد سنة (567هـ) وتوفي سنة (660هـ) وتولى القضاء بمدينة سبتة.[2]

– أبو عبد الله محمد بن سعيد بن علي بن يوسف الأنصاري المعروف بابن الطراز الغرناطي (ت 645هـ ).[3]

**المطلب الثاني: ثقافته ونتاجه العلمي.**

أ) ثقافته: تميز ابن خمير حسب ما شهد له مترجماه ~ ابن الشعار وابن الآبار ~ بثقافة موسوعية جمعت بين اللغة والأدب والفقه والأصول والقرآن والدراسات الحديثية، ومن خلال تعاملي مع كتابيه ( التنزيه والمقدمات ) وقفت على نماذج من ذلك:

فمن ناحية اللغة: امتاز بلغة سليمة، وأسلوب رشيق، وعبارة لطيفة، مع الحرص على أداء وتبليغ المعنى على أحسن وجه، كما بلغ في الشعر شأوا كبيرا، يشهد لذلك ما أورده في مدح مريم عليها السلام:

أما علمت أن المقام سما بها * لأن جمعت بين التوكـل والسبب
بأن لمست جدعا فأينع رأسـه * على الحين أفنانا وأثمر بالرطب[4]

كما مثل ابن خمير –رحمه الله– التوجه التأصيلي الموحدي في أسمى صوره، فاهتم بالقواعد الكلية والأصول العامة للعملية الاجتهادية، وذلك بالرجوع إلى النصوص القرآنية والحديثية بشكل مستمر، إذ لا تكاد تخلو صفحة من صفحات كتبه من الاستشهاد بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وكتابه التنزيه أدخل في تفاسير

---

1– تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء لابن خمير السبتي (ص:13)ت: محمد رضوان الداية، (ط:1990/1) د:الفكر المعاصر، بيروت.
2– الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشي (304/8) ت: د: محمد بن شريفة ط: س: 1984 الأكاديمية المغربية.
3– المصدر نفسه (210/6)
4– تنزيه الأنبياء لابن خمير (ص:135)

القرآن منه في علم الكلام كما صرح بذلك د: محمد بن شريفة.[1] وصرح ابن خمير نفسه أن له كتابا في التفسير سماه : "شرح سورة الكهف."[2] والأمر ذاته ينطبق على النصوص الحديثية، ويبدو أن عنايته الأولى كانت بصحيح مسلم شأنه شأن كثير من علماء الغرب الإسلامي الذين قدموه على صحيح البخاري.[3]

أما أصول الفقه، فدراسة ما بين أيدينا من تراثه أثبتت تناوله لقضايا من صميم الدرس الأصولي، إذ تحدث عن الدرس الأصولي بفروعه الكبرى، في إطار برهنته على أن تكليف العوام النظر في مسائل الاجتهاد يؤدي إلى قطع معايشهم ..." وهو أن تكون متمكنا من النظر حتى تضع الأدلة موضعا من أصول الديانات، عالما بأصول الفقه وطرقها من المعقول والمنقول، مفصلا لأحكام الخطاب في الأوامر والنواهي والنص والفحوى والعموم والخصوص والمجمل والمفسر والمطلق والمقيد والبيان وتدريج البيان وتأخير البيان."[4]

ويكون من نافلة القول التذكير بتفوقه في علم الكلام، فكتابه مقدمات المراشد شاهد على ذلك، حيث وظف فيه مختلف الحجج المستخدمة في هذا الفن لدحض أدلة الخصم وتفنيدها، فرد على شبهات المعتزلة[5] والفلاسفة والباطنية والقرامطة...وذلك بأسلوبه الخاص ومنهجه المعتدل.

ب) نتاجه العلمي:

---

1- مجلة دار الحديث الحسنية (ع: 10-ص: 26) دراسة ل د: محمد بن شريفة بعنوان:" ابن خميرالسبتي وآثاره"

2- مقدمات المراشد إلى علم العقائد لابن خمير السبتي (ص: 275) ت: د: جمال علال البختي (ط:2004/1) مطبعة الخليج العربي، تطوان.

3- المصدر نفسه (ص:46)

4- المصدر نفسه (ص:373)

5- ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية والعدلية أتباع أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ – ت131 تتلمذ في المدينة على يد هاشم عبد الله بن الحنفية، ثم انتقل إلى البصرة ودرس في حلقة الحسن البصري. والسبب في تسميتهم بالمعتزلة أن الحسن البصري سئل عن أصحاب الكبائر وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا بل هو في منزلة بين المنزلتين: لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن : اعتزل عنا واصل فسمي هو وأصحابه معتزلة. الملل والنحل لمحمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني،(45/1) ت: محمد سيد كيلاني (ط1404/1) د:المعرفة، بيروت.

إذا كانت المصادر لا تفيدنا شيئا في معرفة المراكز العلمية التي تبوأها ابن خمير، فقد دلنا ما وصلنا من كتبه على مؤلفاته، وهي أربعة: إثنان منها مطبوعان الآن وهما: مقدمات المراشد، وتنزيه الأنبياء، واثنان مفقودان وهما: الوصية وشرح سورة الكهف.

* مقدمات المراشد:

عنوان هذا الكتاب هو"مقدمات المراشد إلى قواعد العقائد" وطبع تحت عنوان "مقدمات المراشد إلى علم العقائد" وقد حقق هذا الكتاب د: جمال علال البختي اعتمادا على نسخة مخطوطة في خزانة القرويين بفاس. ووصفه د: محمد بن شريفة بقوله: "تعتبر مقدمات المراشد من أقدم تآليف المغاربة في علم الكلام وهي عبارة عن عقيدة وسطى تبتعد عن الإطناب وتقترب من الإيجاز."[1]

* تنزيه الأنبياء :

العنوان الكامل لهذا الكتاب هو" تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، ومجموع نكت ما خص به نبينا صلَّى الله عليه وسلَّم من الكرامات ليلة الإسراء عند لقاء الكليم، وما كان بينهما من المراجعة والمحاورة في أمر الصلاة " وقد حققه د: محمد رضوان الداية اعتمادا على نسخة محفوظة في مكتبة الأسد الوطنية بسوريا.

أما عن سبب تأليفه: فهو مواجهة طائفة من الوعاظ والقصاص المتهمين في دينهم، الذين كان لهم تأثير على العوام، إذ كانوا يسردون قصص الأنبياء حسب هواهم دون انضباط بحدود الشريعة وأركان العقيدة وما يجوز في حق الأنبياء.[2] فقام رحمه الله بنقد هذه الأخبار وتصحيح أخطائها وهناتها، والتنبيه على وقوع الوضع في مجمل ما يرويه غير أهل الاختصاص في هذا الشأن.

* الوصية:

هذا الكتاب ما زال مفقودا، وقد ألفه لفضح منتحلي التصوف الباطني وتأويلاتهم، وخداعهم العامة لأكل أموالهم بالباطل.[3]

1 – مجلة دار الحديث الحسنية (ع:10– ص: 28)
2 – تنزيه الأنبياء لابن خمير (ص: 22)
3 – مقدمات المراشد لابن خمير (ص: 177)

* شرح سورة الكهف:

هذا الكتاب أيضا مفقود. وقد أشار ابن خمير لتأليفه له في معرض الاستدلال على ثبوت الولاية، يقول:" فقد ثبتت بحمد الله الكرامة، وصحت التفرقة بينها وبين المعجزات في قضيات العقول. وأما ثبوتها من النقل فمن الكتاب والسنة، أما الكتاب فمن قصة أهل الكهف، فإنهم لم يكونوا أنبياء إجماعا، وانخرقت لهم العادة من أوجه كثيرة ذكرتها في شرح سورة الكهف."[1]

بهذا القدر أكون قد قدمت نظرة موجزة مختصرة عن ابن خمير السبتي، وحياته الشخصية والعلمية، بالإضافة لأهم إسهاماته العلمية، أنتقل بعدها لتحديد أهم معالم المنهج الوسطي لابن خمير السبتي رحمه الله تعالى في تقريره لقضايا العقيدة.

**المبحث الثاني: معالم المنهج الوسطي عند ابن خمير السبتي في تقرير قضايا العقيدة.**

من أهم المبادئ التي قام عليها الخطاب الأشعري منذ تأسيسه مبدأ التوسط والاعتدال بوصفه من المبادئ الأساسية التي قامت عليها عقيدة أهل السنة والجماعة، فماذا نقصد بالتوسط والاعتدال؟ وكيف تبناه ابن خمير السبتي في تقريره لقضايا العقيدة؟

**المطلب الأول: مفهوم التوسط والاعتدال.**

التوسط مصدر فعل توسط، ومن معاني الوسط: الأعدل والخير، يقول الفيروزأبادي:" الوسط من كل شيء أعدله"[2] ويقول ابن فارس عن مادة « وسط »: "الواو والسين والطاء، بناء صحيح، يدل على العدل والنصف، وأعدلُ الشيء أوسطه ووسطه."[3] ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة/ 143) والدلالة

1- المصدر نفسه (ص: 275)

2 القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادى (ت:817هـ) مادة (و س ط) (ص: 691)ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي (ط: 1426/8 هـ 2005 م) مؤسسة الرسالة، بيروت.

3 معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت:395هـ) مادة ( و س ط) (6/ 108) ت:عبد السلام محمد هارون (ط:1/1991م) د:الفكر بيروت.

الطبيعية للفظ « التوسط » تقتضي دائما وجود طرفين، وبدونهما لا يتحقق مدلول الوسطية.

أما الاعتدال فمعناه الاستقامة والاستواء، يقول ابن فارس:" العين والدال واللام تدل على الاستواء، والعدل من الناس: المرضي المستوي الطريقة." [1] وفي القاموس المحيط:" الاعتدال: توسط حال بين حالين في كم أو كيف، وكل ما تناسب فقد اعتدل، وكل ما أقمته فقد عدلته وعدلته."[2]

وعلى هذا الأساس فإن التوسط والاعتدال لفظان متقاربان في المعنى، يقصد بهما الاستقامة والعدل في الأمور كلها بلا زيادة ولا نقصان، لأن الزيادة في الأمر غلو وإفراط، والنقص منه تقصير وتفريط، وكل من الإفراط والتفريط انحراف وميل عن الجادة والصواب، وقد أمر النبي صلَّى الله عليه وسلَّم بالاعتدال في كل شيء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال:" سددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا."[3]

ويقابل التوسط والاعتدال في المجال العقدي على سبيل التضاد لفظ الغلو والتطرف والزيغ والانحراف، الذي كان سمة بارزة في تاريخ بعض التيارات الكلامية التي تجاوزت ما استقر عليه أمر العقائد الدينية.

**المطلب الثاني: معالم وسطية ابن خمير في تقرير قضايا العقيدة.**

ظلت قيم التوسط والاعتدال من مرتكزات الفكر الأشعري منذ لحظة التأسيس إلى يومنا هذا، فمفكروا هذا الاتجاه ظلوا أوفياء للرؤية القرآنية التي صاغت قضايا الاعتقاد صياغة شاملة ونهائية، تحقق غاياتها في الخلق، ومن بينها العناية بالإنسان المعتقد، وهذه الحقيقة تظهر بوضوح في معالجتهم لمختلف قضايا العقيدة.

---

1- المصدر نفسه، مادة (ع د ل) (4/ 246)

2- القاموس المحيط مادة (ع د ل) (ص: 1030)

3- أخرجه الإمام البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، رقم: 6463 (8/ 98) ت د مصطفى ديب البغا ط:3/ س: 1987، د ابن كثير اليمامة.

وابن خمير السبتي رحمه الله سار على نفس درب الأصحاب، فقد لاحظ أن كثيرا من الفرق الكلامية ابتعدت عن مقاصد الشرع، وصارت إلى وحشة الشذوذ العقدي، مخالفة بذلك فضيلة الاتباع والانتفاع.[1]

وتتجلى مظاهر التوسط والاعتدال عند ابن خمير رحمه الله في عدد من المسائل العقدية نشير إلى بعض منها، فيما يلي:

**أولا: توحيد الذات والصفات**

ظلت العلاقة بين الذات والصفات إحدى أهم القضايا الكلامية التي شغلت مفكري الإسلام منذ المراحل الأولى لعلم الكلام، فقد ذهبت بعض التيارات الكلامية إلى التعطيل، كالجهمية والمعتزلة الذين نادوا بنفي الصفات القديمة واعتبروها عين الذات، قال أبو الهذيل العلاف:"إن الباري تعالى عالم بعلم، وعلمه ذاته، وكذلك قادر بقدرة، وقدرته ذاته."[2] فيما قدمت تيارات كلامية أخرى الذات الإلهية في صورة مادية بحتة، فوقعت في التشبيه والتجسيم، وهذا صنيع الحشوية والمجسمة.[3]

وهو الأمر الذي أنكره الإمام ابن خمير بشدة، يقول رحمه الله: "وكيف لا يكونون أقل الخلق وهم يعبدون العدم المحض، ذلك أن عبدة الأوثان عبدوا أشباحا تخيلوا الإلهية فيها، أو تقربهم بها إلى الإله، فقد عبدوا أشياء كيف ما كانت. وهؤلاء المساكين عبدوا العدم، فإنهم تخيلوا أن الإله تعالى شبح على العرش، وليس على العرش شبح هو الإله، فهم يعبدون العدم المحض والتخيل الفاسد، وإذن ما عبدوا خالقا."[4]

وسلك رحمه الله منهجا وسطا في إثبات الصفات القائمة بذاته سبحانه، فقال:" إن جميع هذه الصفات يستحيل قيامها بأنفسها، فوجب قيامها بذات قائمة بنفسها، وهي ذات الباري تعالى."[5]

---

1- تنزيه الأنبياء لابن خمير (ص: 24)
2- الملل والنحل للشهرستاني،(29/1)
3- المصدر نفسه (105/1)
4- تنزيه الأنبياء لابن خمير (ص:164)
5- مقدمات المراشد لابن خمير (ص: 185)

وحجة الإمام ابن خمير في كون الباري تعالى لا يشبه المخلوقات، أنه لو أشبه المخلوقات لأدى ذلك إلى الحدوث الذي هو مصير المخلوقات، والخالق يتنزه عن ذلك، وأترك له التعبير عن ذلك:"استحالة المماثلة بين الله تعالى وبين خلقه، فلو كان كل ما حملوه على ظاهره غير مؤول للزم أن يكون الباري تعالى: شيخا ،مؤلفا، ذا أحياز، وأبعاض. وكون في الأماكن بحركات وسكنات مخصصا منحصرا،...وهذه من صفات الأجرام التي فرغنا من إثبات حدثها وصحة ازدواجها"بل إنه يعتبر أن هذا الأصل:" انتفاء المماثلة بين الخالق والمخلوق" من الأمور المجمع عليها عند السلف، لأن التشبيه يتطلب أمرين:"إما حدوث القديم الذي أقمنا الدليل على قدمه، أو قدم الحادث الذي أقمنا الدليل على حدوثه، وهذه هي السفسطة وقلب الحقائق، ورد أدلة العقول."[1]

**ثانيا: الصفات الخبرية.**

تظهر ثقافة الاختلاف والإيمان بالتعدد في الرأي جلية عند ابن خمير في معالجته لإشكالية الصفات الخبرية، فبالرغم من تأويله لهذه الصفات إلا أنه لم ينتقص من أهل التفويض ولا من مذهبهم، بل اعتبر منهجهم من مقتضيات الاقرار بكمال الله جل وعلا، يقول رحمه الله: "على أنهم رضي الله عنهم لم ينقضوا أيضا في إثبات هذه الصفات حقيقة، ولا نقضوا كمالا."[2] وبعدما أقر بمخالفته لهم بمنهجه التأويلي، طلب العذر من الأئمة، يقول: "وبعد فالمعذرة إلى الإخوان في التقدم بين يدي الأئمة رضي الله عنهم في مثل هذه المسائل."[3] واعتبر أن العقل هو معتمد الجميع مفوضة ومؤولة لأن "الشرائع لا ترد بما يناقض أدلة العقول، وأنبياء الله تعالى لا يقولون عليه إلا الحق."[4] وخصص فصلا كاملا للرد على المشبهة "في آي وأحاديث، ركنوا إلى ظاهرها في ادعاء التشبيه كآية الاستواء،[5] وآية المجيى،[1] واليد،[2] والأعين،[3] والجنب،[4] وكذلك

1- المصدر نفسه (ص: 160)
2- المصدر نفسه (ص: 198)
3- المصدر نفسه (ص: 200)
4- المصدر نفسه (ص: 161)
5 - من بينها قوله تعالى:﴿الرحمن على العرش استوى﴾(طه/5)

حديث النزول،[5] ...إلى غير ذلك."[6] واعتمد في ذلك أسلوبا جدليا يجمع بين الأدلة العقلية والنقلية.

وهكذا أول اليد بالقدرة البالغة التي يتمكن بها إيقاع الفعل،[7] والعين بالحفظ والكلاءة، أو العلم والإحاطة، [8] أما الوجه فهو كناية عن الذات،[9] ويرى أن الأمر ذاته مستمر في كل ما أضاف الله تعالى لنفسه في الكتاب من روح آدم وعيسى عليهما السلام، ونوره، واستوائه،...إلى غير ذلك.[10]

**ثالثا: رؤية الله تعالى**

ذهبت الحشوية إلى أن الله يرى مكيفا محدودا، شأنه شأن سائر المرئيات،[11] في حين اختار التيار الاعتزالي والجهمي إنكار الرؤية من أساسها، أي أنه سبحانه لا يرى بحال من الأحوال[12].

أما الأشاعرة وكبقية أهل السنة والجماعة فقد اختاروا التوسط في هذه المسألة، فقرروا أنه سبحانه يُرى من غير حلول ولا حدود ولا تكييف، تماما مثل ما يرانا هو سبحانه وتعالى غير محدود ولا مكيف، فكذلك يراه المؤمنون وهو غير محدود ولا

---

1 – قوله تعالى:﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾( الفجر/ 22)
2 – كقوله تعالى:﴿يد الله فوق أيديهم﴾(الفتح/10)
3 – كقوله تعالى:﴿ولتصنع على عيني﴾(طه/39)
4 – قوله تعالى:﴿أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله﴾(الزمر/56)
5 – أخرج الإمام مالك في الموطأ، عن أبي هريرة رضي الله عنه "أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له." كتاب: القرآن. باب: ما جاء في الدعاء، رقم:498 (214/1) علق عليه ابن عبد البر بقوله: "هذا حديث ثابت من جهة النقل صحيح الإسناد لا يختلف أهل الحديث في صحته رواه أكثر الرواة عن مالك هكذا،وهو حديث منقول من طرق متواترة ووجوه كثيرة من أخبار العدول عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم " التمهيد (128/7)
6 – مقدمات المراشد لابن خمير (ص:159)
7– المصدر نفسه (ص:198)
8– المصدر نفسه (ص:199)
9– المصدر نفسه (ص:199)
10– المصدر نفسه (ص: 199)
11– الملل والنحل للشهرستاني (1/ 105)
12– شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص: 232 )ت:عبد الكريم عثمان (ط:3/س:1996) مكتبة وهبة القاهرة.

مكيف، فهم مؤمنون برؤية الله تعالى يوم القيامة، بل يعتبرونها من أعظم اللذات وأعلى الدرجات لذلك عمدوا إلى حشد كل الأدلة التي من شأنها إثبات الرؤية ودحض مذهب النفاة، خصوصا خصومهم المعتزلة الذين أنكروها معتمدين في ذلك على قياس الغائب على الشاهد، فشروط الرؤية عندهم لا تختلف شاهدا وغائبا وهي (الوسط الشفاف – الضوء – كون المرئي في جهة معينة) وبالتالي أنكروها لما تفضي إليه من التجسيم والتشبيه في حق الإله. ومن ذلك تفسير الأخفش المعتزلي (ت:215) لقوله تعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة/22-23) قال:"يعني – والله أعلم – بالنظر إلى الله: إلى ما يأتيهم من نعمه ورزقه، وقد تقول: والله ما أنظر إلا إلى الله وإليك، أي:أنتظر ما عند الله، وما عندك" [1].

وقد رد الأزهري (ت: 370) ما فسر به الأخفش، فقال:"ومن قال: إن معنى قوله ﴿إلى ربها ناظرة﴾ بمعنى: منتَظرة، فقد أخطأ، لأنَّ العرب لا تقول: نظرت إلى الشيء، بمعنى: انتظرته، إنما تقول: نظرت فلانا، أي: انتَظرته، ومنه قول الحطيئة:

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ أَبْنَاءَ صَادِرَةٍ * لِلْوِرْدِ طَالَ بِهَا حَوزِي وَتَنْسَاسِي

فإذا قلت: نظرت إليه، لم يكن إلاَّ بالعين، وإذا قلت: نظرت في الأمر، احتمل أن يكون تفكُرا وتدبرا بالقلب."[2]

وابن خمير كبقية الأصحاب لم يأل جهدا في توظيف جميع الأدلة لإثبات الرؤية، ومن بينها الأدلة العقلية، وهكذا وظف الدليل العقلي ممثلا في طريقة السبر والتقسيم لتأويل معنى اللقاء في قوله تعالى ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (العنكبوت/5) يقول:"وفيه تنفيس خناق المشتاقين للقائه تعالى، وذلك أن اللقاء على ثلاثة أضرب لقاء الحس ولقاء المعنى ولقاء الإدراك، فأما اللقاء بالحس فلا يجوز عليه تعالى، وأما لقاء المعنى فقد حصل لهم في الدنيا، وهو العلم به تعالى، فلم يبق إلا لقاء الإدراك فتأمل هذه النادرة المستخرجة من هذه الآية."[3] وأيد هذا

---

1- معاني القرآن للأخفش (2/ 558)ت: د: فائز فارس ،(ط:1981/2) الكويت.
2 - تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهري(ت:370هـ) (14/ 371) ت:محمد عوض مرعب (ط:2001/1م) د:إحياء التراث العربي بيروت.
3- مقدمات المراشد لابن خمير (ص: 219)

التفسير بحديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم "ترون ربكم كما ترون القمر ليس دونه سحاب."[1]ووظف اللغة في الاستدلال بهذا الأثر."فقوله (كما) راجعة للرائي لا لمرئي لأن الله يتعالى عن الجهات، فبشرنا صلَّى الله عليه وسلَّم ببشارتين: إحداهما: أنا نراه، والثانية: أنا نعلم عند رؤيته أنه هو ضرورة كما نعلم القمر إذا رأيناه، وكذلك بشرنا ربنا ببشارتين: إحداهما: نضرة النعيم، والثانية: نضرة العين إليه."[2]

**رابعا: كلام الله تعالى.**

وعلى نفس المنوال عالج الإمام ابن خمير مسألة كلام الله تعالى، حيث وضعها في صورة سنية برهانية.

فإذا كان التيار الاعتزالي يقول بخلق القرآن،[3] والحشوية يذهبون إلى أن الحروف المقطعة والأجسام التي يكتب عليها والألوان التي يكتب بها وما بين الدفتين كلها قديمة أزلية،[4] فإن الإمام ابن خمير شأنه في ذلك شأن بقية الأشاعرة ذهب مذهبا وسطا في هذا الموضع الشائك فقرر: أن القرآن كلام الله قديم غير مخلوق خلافا لما ذهب إليه المعتزلة، كما أن الحروف المقطعة والأصوات المنطوقة مخلوق مبتدع خلافا لتيار الحشوية والمشبهة، والمراد بكلام الله هو الكلام الأزلي الذي يتعالى عن الحرف والصوت، وحجته في ذلك النقل والعقل، فمن النقل قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء/164)، أما من العقل فالكلام على ضربين حقيقة ومجاز، والمجاز هو الصوت الذي تصطك فيه الأجرام، والحروف هي أحواله التي يتماثل بها ويختلف. وقد جعله الله تعالى علامة عن كلام النفس الحقيقي الدائر في الخلد، قال الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا

---

1 – أخرج البخاري عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه . قال :" كنا عند النبي صلَّى الله عليه وسلَّم فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال:" إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا"كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر، رقم: 520، (203/1). كما أخرجه أيضا الإمام مسلم في كتاب: المساجد، باب: فضل صلاتي العصر والصبح، رقم:633 (439/1).

2 – مقدمات المراشد لابن خمير (ص: 219)

3 يقول القاضي عبد الجبار:" واما مذهبنا في ذلك، فهو ان القرآن كلام الله تعالى ووحيه، وهو مخلوق محدث." شرح الأصول الخمسة ص: 527

4 الملل والنحل للشهرستاني (1/ 106)

والحقيقي هو الكلام الباطن الذي هو أصل الكلام الظاهر ومنبعه. وفي سياق إثبات الكلام النفسي، استشهد بقوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾(المنافقون/1) حيث أكذب الله تعالى المنافقين بقوله:﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون/1) ولا شك أن قولهم بأفواههم ما كان كذبا، حيث كانوا يقولون بكلام أنفسهم: ما أنت رسول الله.[1]

ومن جهة أخرى فقد ثبت أنه تعالى خلق الخلق بقدرته وإرادته وعلمه، ولا تتحرك ذرة في الكون إلا بإذنه وأمره ونهيه، فلو لم يكن تعالى متكلما لما صح أن يكون آمرا ناهيا. ومعظم ما جاء به الرسل عن الله تعالى إنما هو الأمر والنهي والوعد والوعيد عليهما، وهي لا تعقل إلا لآمر ناه واعد متوعد فلو لم يكن الباري تعالى متكلما لم تصح النبوة.

وأنكر على المجسمة زعمهم أن الله متكلم بحرف وصوت خلقه في ذاته، " فصيروه ظرفا للحوادث –تعالى عن ذلك علوا كبيرا."[2] ولدحض مذهبهم يوظف الدليل العقلي مقترنا بالدليل اللغوي لترجيح المعنى، يقول: "الكلام الذي ادعيتم أنه حروف وأصوات إنما هو عبارة عن الكلام النفسي كما قال المحققون وصح عند أهل اللغة."[3] ويضيف قائلا: "لو اتصف بأحكام الحوادث...كان يلزم أن يتصف بكل ما خلق... فلو كان الباري تعالى يتصف ببعض خلقه، لجاز أن يتصف بالكل حتى يقال: إنه مصوت ناطق ساكن متحرك ساكن...إلى غير ذلك من سائر ما يخلق، وهذه فضائح لا يبوء بها عاقل."[4]

**خامسا: الفعل الإنساني**

1- مقدمات المراشد لابن خمير (ص: 210)
2- مقدمات المراشد لابن خمير (ص: 209)
3- المصدر نفسه (ص: 209)
4- المصدر نفسه (ص: 211)

يعتقد الجهمية أن الإنسان مجبر[1] في أفعاله كلها، ولا يقدر على فعل شيء ولا كسبه، قال البغدادي:" الجهمية اتباع جهم بن صفوان الذى قال بالإجبار والاضطرار الى الاعمال وأنكر الاستطاعات كلها." [2] أما المعتزلة فيرون أن الإنسان قادر على الإحداث والكسب معا.[3] وقد سلك الأشاعرة طريقا وسطا، فميزوا بين القدرة على الفعل في حد ذاته، وكسب الإنسان له. يقول الإمام الآمدي:" إن مذهب الشيخ أبي الحسن هو الطريق العدل، والمسلك المتوسط بين طرفي الجبر المحض، وإثبات خالق غير الله تعالى بتوفيقه بين دليل إثبات القدرة الحادثة، ودليل انتفاء خالق غير الله تعالى ."[4]

وتمثل نظرية الكسب قمة التوحيد، فهذا الأصل العقدي يدل على انفراد الله تعالى بالخلق والتصرف المطلق في خلقه، والإنسان مكتسب لعمله، وهذا هو حدود الاختيار الذي يحاسب بمقتضاه المكلف، ثم يأتي دور القدرة الإلهية بشموليتها بحيث يكون الإنسان وما كسبه داخلا تحت هذه القدرة.

وقد تفنن الشراح فيما بعد في المنافحة عن هذا الأصل العقدي، ومن بينهم ابن خمير السبتي إذ وظف اللسان العربي في التميز بين الخلق والكسب، فمعتاد العرب في خطابها يشكل أحد المرتكزات الأساسية في معرفة المراد من اللفظ، ومعاني القرآن الكريم يجب توجيهها إلى المعنى الظاهر المشتهر استعماله بين الناس في زمن الرسالة، ولا يجوز توجيهها إلى المعنى الخفي المستعمل على قلة، يقول رحمه الله: "فالعرب تسمي كل ما نقوم به من أفعال كسبا وكدحا واجتراحا...وتسمي أفعال الله تعالى خلقا وابتداعا واختراعا، وسمع منها أن الله تعالى خالق فاطر بارئ بديع، وما سمع منها أن الله كاسب قادح مقترف، فهذه تفرقة لغوية تدل على أن العرب فرقت بين أفعال الخالق وأفعال المخلوق، فلو كانوا يعتقدون التسوية في الأفعال، لم يراعوا التفرقة

---

1 – الجبر بمعنى الإكراه على الفعل، من جبَرَه على الأمر يجْبُرُه جَبْراً وجُبُوراً وهو نفي الفعل حقيقة عن الإنسان وإضافته إلى الله تعالى، وأن ليس للعبد قدرة ولا اختيار. تاج العروس للمرتضى الزبيدي (349/10–351) ت: إبراهيم الترزي دار إحياء التراث العربي، بيروت.

2 الفرق بين الفرق لعبد القاهر بن طاهر البغدادي(ص: 199) (ط3/ 1977) د: الآفاق الجديدة، بيروت.

3 شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص: 323)

4 أبكار الأفكار في أصول الدين للإمام سيف الدين الآمدي، ( 96/5)

في التسميات فهذا فرق لغوي."[1] وأيد هذا الترجيح اللغوي بمجموعة من الشواهد الشرعية منها قوله تعالى: ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (فصلت/17) وقوله تعالى: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد/16) كما أن القول بالجبر يفضي لانعدام القدرة، فلا يتصور معه أمر ولا امتثال ولا نهي ولا ترك، وهذا مناف لما جاءت به الآيات الكريمة.[2]

**سادسا: الشفاعة**

أثبتت الرافضة للرسول صلَّى الله عليه وسلَّم ولعلي رضي الله عنه شفاعة مطلقة من غير أمر الله تعالى ولا إذنه، حتى لو شفعا في الكفار قبلت، والشفاعة عند المعتزلة مقتصرة على التائبين من أمة محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، دون غيرهم.[3]

أما الأشاعرة فقد سلكوا مسلكا وسطا فقالوا : إن للرسول صلَّى الله عليه وسلَّم شفاعة مقبولة في المؤمنين المستحقين للعقوبة، يشفع لهم بأمر الله تعالى وإذنه مستدلين بقوله تعالى:﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾( البقرة/ 255) وقوله عز وجل ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء/ 28).

وعلى هذا الأساس فإن الشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد صلَّى الله عليه وسلَّم من الأمور المجمع عليها عند أهل السنة والجماعة.[4]

وقد استدل ابن خمير رحمه الله بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (الواقعة/88-91) لإثبات شفاعته صلَّى الله عليه وسلَّم يوم القيامة، فهذه الآية تتضمن بشارتين لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الأولى بالمقربين الذين وفوا أعمالهم، والثانية بأصحاب اليمين المقصرين أنه يسلمهم من أجله أي بشفاعته لقوله ﴿فسلام لك﴾ واللام هنا لام لأجل، ووظف الشعر في إثبات ذلك. قال الشاعر:

1- مقدمات المراشد لابن خمير (ص: 233)
2- المصدر نفسه (ص: 233)
3 شرح الأصول الخمسة (ص 688)
4 الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري (ص: 244) ت: د. فوقية حسين محمود ط:1397/1هـ. د:الأنصار، القاهرة.

وقمير بدا ابن خمس وعشري * ن له قالت الفتاتان قوما.

أي لأجله، فتأمل هذه النادرة فإنها تتضمن استخراج الشفاعة من الكتاب إخراجا لطيفا، وإكرام هذا النبي الأمي صلوات الله عليه وتسليمه.[1]

**المبحث الثالث: التوفيق بين النقل بالعقل من أهم سمات وسطية الخطاب الأشعري**

من بين الثوابت التي قام عليها الفكر الأشعري التوفيق بين العقل والنقل لأن:" ما جاء به الكتاب والسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة مستقيم على العقول الصحيحة والآراء السديدة."[2] وقد صرح ابن خلدون بهذه النزعة التوسطية حيث قال:" وقام بذلك الشّيخ أبو الحسن الأشعريّ إمام المتكلّمين فتوسّط بين الطّرق ونفى التّشبيه وأثبت الصّفات المعنويّة، وقصر التّنزيه على ما قصره عليه السّلف. وشهدت له الأدلّة المخصّصة لعمومه فأثبت الصّفات الأربع المعنويّة والسّمع والبصر والكلام القائم بالنّفس بطريق النّقل والعقل."[3] وقد خصصت هذا المبحث لبيان مرتكزات الخطاب الأشعري في التوفيق بين العقل والنقل.

**المطلب الأول: مفهوم العقل عند المتكلمين.**

العقل لغة: مشتق من مادة عقل يعقل عقلا أي فهم، وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها أخذا من قولهم قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام.

– جاء في لسان العرب: "عقل الشيء يعقله عقلا أي فهمه."[4]

– ويقول الفيروزأبادي "العقل هو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها، أوالعلم بخير الخيرين وشر الشرين."[5]

انطلاقا من هذه التعاريف يتبين أن علماء اللغة حددوا دلالتين للعقل:

– الأولى: دلالة معنوية نظرية تتمثل في الفهم والإدراك.

1– مقدمات المراشد لابن خمير (ص: 370–371)

2 تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري لابن عساكر (ص: 105) ط:3/ 1404هـ دار الكتاب العربي – بيروت.

3 المقدمة لابن خلدون (ص: 588 ) ت: درويش الجويدي (ط: س 1425هـ – 2005م) المكتبة العصرية بيروت.

4– لسان العرب لابن منظور مادة: ع ق ل (458/11) ط:1 د: صادر بيروت (دون تاريخ)

5– القاموس المحيط للفيروز أبادي مادة: ع ق ل (1336/1)

– والثانية: دلالة وظيفية أخلاقية تتمثل في التمييز بين الخير والشر، وتمييز صفات الأشياء من حسن وقبح أو صلاح وفساد.[1]

أما في الاصطلاح:

فقد تشعبت الآراء في تعريفه وبيان حقيقته لأنه يستعمل لمعان كثيرة، وهذه أهم التعاريف التي وقفت عليها حسب الانتماء المذهبي لكل مدرسة.

أ) المعتزلة:

جعل المعتزلة العقل أساسا لفهم الشريعة، وعدوا الدليل السمعي تابعا للدليل العقلي، وقالوا: إن الشريعة تؤكد ما في العقول ولا تختلف معها، وبأنها ليست بمفردها الدالة على وحدانية الله تعالى وعدله وسائر الأحكام العقلية. لقد حاولوا في إطار هذا المفهوم الاحتكام إلى العقل وأدلته والتمييز بينها وبين أدلة الشرع، وحرصوا على توظيف ذلك في علاج قضايا التوحيد ومسائل النبوات والسمعيات.[2]

فكل مسألة من مسائلهم يعرضونها على العقل، فما قبله أقروه وما لم يقبله رفضوه. يقول القاضي عبد الجبار "فاعلم أن الدلالة أربعة: حجة العقل والكتاب والسنة والإجماع، ومعرفة الله تعالى لا تتم إلا بحجة العقل."[3] واستدل على إعطائه الأولوية بقوله: "لأن ما عداها فرع على معرفة الله بتوحيده وعدله، فلو استدللنا بشيء منها على الله والحال هذه كنا مستدلين بفرع الشيء على أصله وذلك لايجوز."[4]

أما بخصوص تعريفهم للعقل:

---

1- القرآن و النظر العقلي فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل (ص:328) (ط:1/ 1981) نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية، رقم 7.

2 التأويل في التفسير بين المعتزلة و السنة د:السعيد شنوقة (ص: 251) تقديم: د:مختار الأحمادي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة 2005م.

3- شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص: 88)

4- الموضع نفسه .

– فقد عرفه أبو الهذيل العلاف بقوله:"منه علم الاضطرار الذي يفرق الإنسان به بين نفسه وبين الحمار، وبين السماء والأرض، وما أشبه ذلك، ومنه القوة على اكتساب العلم."[1]

– والإمام أبو علي الجبائي عرفه بقوله:"العقل هو العلم."[2]

وهذه التعاريف استخدم فيه العقل بإطلاقين:

– الأول: الفطرة الأولى في الإنسان التي يميز بها بين العلوم الضرورية.

– الثاني: تلك القوة التي يجدها الإنسان في نفسه وبواسطتها يحصل العلوم.

– أما القاضي عبد الجبار فقد عرفه في المغني بقوله:"جملة من العلوم مخصوصة متى حصلت في المكلف صح منه النظر والاستدلال والقيام بأداء ما كلف."[3] وتعريف القاضي عبد الجبار مرتبط بنظريته في صحة التكليف، حيث حرص على إثبات تمكن المكلف بالعقل ليصح منه التكليف، ونفى أي قول في العقل قد يؤدي إلى تكليف ما لا يطاق.

ب) الأشاعرة:

– عرف الإمام أبو الحسن الأشعري العقل، قائلا: "العقل هو العلم."[4] وهو تعريف يركز على الغاية والوظيفة من العقل ممثلة في تحصيل العلم.

– أما الباقلاني فالعقل عنده "علوم ضرورية بوجوب الواجبات، وجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات."[5]

– وتبعه في ذلك تلميذه الجويني" العقل علوم ضرورية، والدليل على أنه من العلوم الضرورية استحالة الاتصاف به مع تقدير الخلو عن جميع العلوم."[6] ثم كرر نفس

---

1– مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لعلي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن (ص:480) تقديم: نعيم زرزور (ط2005/1) المكتبة العصرية، بيروت.

2– المصدر نفسه (ص:481)

3 – المغني في أبواب التوحيد والعدل (11/ 375) ت: محمد علي النجار، وزارة الثقافة، مصر.

4 مقالات الإسلاميين (ص:482)

5– حكاه عنه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن(408/1) د: الكتاب العربي للطباعة والنشر.

6 – البرهان في أصول الفقه للجويني (95/1) ت: د. عبد العظيم محمود الديب (ط:1418/4) دار الوفاء، المنصورة مصر.

كلام الباقلاني، وبذلك يتضح أن الباقلاني ومن بعده، كالجويني يركز على قدرة العقل على التمييز بين الأشياء، والحكم عليها، أي على الوظيفة وتطبيقاتها على الأحكام العقلية التي تستند إلى العلوم الضرورية.

– أما الإمام الغزالي، فأشار لتعدد معانيه بتعدد المذاهب، ثم ذكر أنه يطلق على معان أربعة:

الأول: الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية.

الثاني: هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد. وهو الذي عناه بعض المتكلمين، حيث قال في حد العقل: إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات.

الثالث:علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من قال إنه غبي غمر جاهل فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا.

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلا من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضا من خواص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان."[1]

وهذه التعاريف تؤكد دور العقل كقوة وملكة في النفس بواسطتها يمكن من إدراك العلوم وتحصيل المعارف.

– وابن خمير السبتي لم يخرج عن هذا الإطار الذي اختطه الأصحاب، وعرفه: "بالعلوم التي تفصل بين العقلاء والبهائم، وهي المسماة عقلا على مذهب أهل الصواب في حد العقل، وهي المشروطة في التكليف على مذهب أهل الصواب العقلاء."[2] وهذه العلوم تتمثل في:

1 – إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (85/1–86) دار المعرفة، بيروت.

2 – مقدمات المراشد لابن خمير (ص:108)

– العلم بالوجوب والجواز والاستحالة...فإذا كان المرء يعلم أن الفعل إذا صح يفتقر لفاعل كالكتابة المفتقرة للكاتب، وأن ما يحدث في الكون من الأفعال كنزول المطر وتصريف الرياح هي من الأمور الجائزات، وأن الجسم لا يكون أسود أبيض، ولا متحركا ساكنا في زمن واحد، فهذا هو معنى كونه عاقلا، وهذه هي العلوم التي فصلت بين العقلاء و البهائم والمسماة عقلا على مذهب أهل الصواب.[1]

**المطلب الثاني: مرتكزات الخطاب الأشعري في التوفيق بين العقل والنقل**

يمكن القول أن العلاقة بين العقل والنقل في الخطاب الأشعري تحكمها ثنائية منهجية:

– فمن جهة، فإن للعقل حدودا يقف عندها، إذ لا يستطيع إدراك ما وراء الغيب. "فقد يرد الشرع بما يقصر العقل عن الاستقلال بإدراكه، إذ لا يستقل العقل بإدراك كون الطاعة سببا للسعادة في الآخرة، وكون المعاصي سببا للشقاوة."[2]

– ومن جهة أخرى: يعتبر أساسا يقوم عليه الوحي في إدراك الخطاب والإلزام بالتكليف. ووظيفته تتمثل في الاستدلال والتوصل بالبرهان إلى وجود الله تعالى وصدق الأنبياء في دعواهم، وبعد ذلك يسلم للأخذ من هذا المصدر الذي أقره، يقول الغزالي: "العقل يدل على صدق النبي، ثم يعزل نفسه، ويعترف بأنه يتلقى من النبي بالقبول ما يقول في الله واليوم الآخر مما لا يستقل العقل بدركه ولا يقضي أيضا باستحالته."[3]
ويأخذ الغزالي على أتباع الفريقين وأعني بهم الذين يتمسكون بظواهر النصوص، والذين يقدمون العقل على النص، أنهم ينحرفون عن الطريق المستقيم الذي هو التوفيق بين نصوص الشرع ونتائج العقل، ويعطي تشبيهًا لطيفًا فيشبه العقل السليم بالعين السليمة من الآفات والأدواء، ويشبه نصوص الشرع بضياء الشمس، ويشبه من يكتفي

1 – الموضع نفسه .
2 – المستصفى للغزالي (6/1) ت: محمد عبد السلام عبد الشافي (ط1/ 1413) د:الكتب العلمية، بيروت.
3 – الموضع نفسه .

بالنصوص ويستغني عن العقل بمن ينظر إلى ضياء الشمس وهو مغمض العينين، فهو في هذه الحالة كالعميان.[1]

ومن أبرز علماء الأشاعرة الذين تطرقوا للعلاقة بين العقل والنقل، نجد شيخ المقاصديين الإمام الشاطبي، الذي أكد على أسبقية النقل على العقل، يقول:"إذا تعاضد النقل والعقل على المسائل الشرعية، فعلى شرط أن يتقدم النقل فيكون متبوعا، ويتأخر العقل فيكون تابعا، فلا يسرح العقل في مجال النظر إلا بقدر ما يسرحه النقل."[2] وبنى استدلاله على أمور ثلاثة:

- أولا: أنه لو جاز للعقل تخطي مأخذ النقل لم يكن للحد الذي حده النقل فائدة.

- الثاني: العقل لا يحسن ولا يقبح، ولو فرضناه متعديا لما حده الشرع لكان محسنا ومقبحا وهذا خلف.

- الثالث: أنه لو كان كذلك لجاز إبطال الشريعة بالعقل وهذا محال باطل.[3]

وزاد الأمر بيانا عندما اعتبر الأدلة العقلية مقيدة بالأدلة السمعية وخادمة لها. يقول:"الأدلة العقلية إذا استعملت في هذا العلم فإنما تستعمل مركبة على الأدلة السمعية، أو معينة في طريقها، أو محققة لمناطها، أو ما أشبه ذلك لا مستقلة بالدلالة، لأن النظر فيها نظر في أمر شرعي، والعقل ليس بشارع."[4]

أما ابن خمير فقد اعتبر رحمه الله العقل الوسيلة الأولى لمعرفة الله تعالى، يقول في مقدمة كتابه: "الحمد لله المنفرد بالكمال الواجب بالعزة والجلال، المعلوم بمجرد العقول بعد النظر والاستدلال."[5] ويقول في سياق آخر: "فقد ثبت وصح فيما تقدم أن الله تعالى لا يعرف إلا من جهة النظر في مخلوقاته بأنها خلقه، وأنه متفرد باختلاقها

---

1 الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص: 10 ت: **عبد الله محمد الخليلي، ط:1/ 1424 هـ - 2004 م، دار الكتب العلمية، بيروت.**

2 - الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي (ت:790هـ) (1/ 87- 88) ت: عبد الله دراز دار المعرفة بيروت.

3 - الموضع نفسه .

4 - المصدر نفسه (35/1)

5 - مقدمات المراشد (ص: 73)

واختراعها مستبد بإيجادها."[1] ومما يدل على أهميته العقل أن الله تعالى "أمر الكل بالنظر والاستدلال في حدث العالم في الكتاب العزيز في نيف على ستمائة وستين موضعا تصريحا، أما الضمن ففي الكتاب العزيز من أوله إلى آخره."[2] واجتهد رحمه الله تعالى في استحضار الآيات التي تشهد لذلك، منها قوله تعالى:﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة/111) وقوله تعالى:﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ ( الأنعام/ 148)

والدليل العقلي عنده من أصح الأدلة وأقواها لدرء الشبهات، يؤكد ذلك ما أردف به الأدلة العقلية التي وظفها لإثبات كلام الله تعالى، يقول: "ومنهم من لم يقنع في إثباته إلا من جهة العقل، وهو– لعمر الله – أثلج للصدور وأحسم لشبهات الغرور."[3]

ومع هذه الأهمية التي حظي بها عنده الدليل العقلي، كان من الطبيعي أن ينتقد أهل التقليد الذين يقبلون القول بغير دليل، وخصص لهذا الغرض فصلا بأكمله موظفا الإجماع والقياس المنطقي في البرهنة على ذلك.[4]

وفي المقابل امتدح أهل النظر والحجاج، وبين أنهم المقصودون بقول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال الجاهلين وتأويل المبطلين."[5] "فالخلف العدول هم علماء الكلام، أهل النظر والحجاج."[6]

ورغم الأهمية الكبيرة التي حظي بها العقل عند ابن خمير، إلا أنه يلتزم النظرة الأشعرية حينما يقر أن التكليف لا يتم إلا بالشرع، ولا مدخل للعقل فيه خلافا لمذهب المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين، ويستدل بقوله تعالى﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى

1 – المصدر نفسه (ص:181)
2 – المصدر نفسه (ص: 90)
3 – المصدر نفسه (ص: 205)
4 – المصدر نفسه (ص: 101)
5 – يبدو أن ابن خمير لم يكن دقيقا في نقل هذا الحديث. وقد جاء في مسند الشاميين لسليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :"يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين" مسند عبد الرحمن بن يزيد بن جابر(1/ 344) ت : حمدي بن عبد المجيد السلفي (ط:1/1984) مؤسسة الرسالة، بيروت.
6– المصدر نفسه (ص: 93)

نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء/15) وقوله أيضا: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء/165)"فالإلزام بالشرع لا بالعقل، لأن العقل ضرب من ضروب العلوم، والعلم كاشف لا مرجح، وإنما يقع الترجيح للأمر الناشئ باختياره أحد الجائزات، ولا سبيل للعقل إلى ذلك. ولو كان العقل يستقل بترجيح عبادة مخصوصة مع جواز التكليف بخلافها، لجاز أن يرجح جميع العبادات لكونها متساوية في الترجيح، وهذا تعطيل للنبوات، واستقلال للعقل بالشرائع وعدم الحاجة إلى مرجح، وهذا قول البراهمة المنكرين للنبوات، فإنهم زعموا أن لا حكم إلا للعقل."[1] وهو ما أكده في سياق رده على الفلاسفة: "من أين للعقول تخصيص أحد الجائزين، وهو يحتاج إلى ترجيح وتلويح، والعقل إنما هو كاشف لا مرجح، وقد تقدم الكلام عليه في أول المعتقد."[2] وهذا الأمر قد أطبق عليه الأشاعرة قبل ابن خمير.

– يقول: الشيخ أبو الحسن الأشعري، "والواجبات كلها سمعية، والعقل ليس يوجب شيئا، ولا يقتضي تحسينا ولا تقبيحا، فمعرفة الله تعالى بالعقل تحصل، وبالسمع تجب، قال تعالى﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء/15) "[3]

– وأكده أيضا الشهرستاني: فالمعارف كلها تحصل بالعقل لكنها تجب بالسمع.[4]

**خاتمة:**

على ضوء ما سبق يتبين لنا أن الوسطية والاعتدال ظلت سمة بارزة في الفكر الأشعري منذ تأسيسه إلى يومنا هذا، مما أهله لوظيفة التدافع الحضاري حيث وقف حجر عثرة أمام الغلو والتطرف، كما رفض الإفراط والتفريط في قضايا العقيدة على حد سواء، نتيجة لإيمان رواده بفضيلة التنوع والاختلاف، وذلك عبر النقاش العلمي الرصين مع المخالفين في الرأي، يشهد لذلك توظيف أعلام الأشاعرة للأسلوب الجدلي الحواري، وإعمال أدوات التدليل المنطقي في مواجهة دعاة العقلانية المحضة، أو أصحاب القراءة الظاهرية الصرفة على حد سواء.

1 – المصدر نفسه (ص: 115)
2– المصدر نفسه (ص: 294)
3 – حكاه عنه الشهرستاني في الملل والنحل (1/ 93)
4 – الملل والنحل (40/1)

إن هذه الوسطية من بين أهم أسباب الانتشار الواسع لهذه العقيدة السنية السمحة في شتى أنحاء العالم الإسلامي، لقد زاوج الأشاعرة في النهاية بين منهج النص ومنهج العقل فأدى ذلك إلى مذهب وسط يحترم النص والعقل معاً، لأن نتائج العقل اليقينية لا يمكن بحال أن تتعارض مع نصوص الشرع القطعية الدلالة، وهذا المنهج انعكس على سائر القضايا العقدية التي يتناولها الدرس العقدي الأشعري.

وأخيرا وجب التنبيه أن المشتغل بالدراسات العقدية ملزم باستحضار مبدأ التوسط والاعتدال كموجه رئيس في معالجته لكثير من المسائل العقدية التي يعاد إنتاجها الآن عبر خطابات لا تخلو من غلو وتطرف، خصوصا وأن مبدأ التوسط والاعتدال يستهدف تحقيق مقاصد الاعتقاد في الخلق وفي مقدمتها تكريم الإنسان المعتقد والعناية به.

ونسأل الله جل وعلا الخلاص في الإخلاص، و التوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

**فهرس المصادر والمراجع**

- القرآن الكريم.

- الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري، ت: د. فوقية حسين محمود ط:1/1397هـ. د:الأنصار، القاهرة.

- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

- الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، ت: عبد الله محمد الخليلي، ط:1/ 1424 هـ - 2004 م، دار الكتب العلمية، بيروت.

- البرهان في أصول الفقه للجويني، ت: د. عبد العظيم محمود الديب (ط:4/1418) دار الوفاء، المنصورة مصر.

- تاج العروس للمرتضى الزبيدي ، ت: إبراهيم الترزي دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- التأويل في التفسير بين المعتزلة و السنة د:السعيد شنوقة تقديم: د:مختار الأحمادي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة 2005م.

- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري لابن عساكر ط:3/ 1404ه دار الكتاب العربي – بيروت.
- التكملة لكتاب الصلة لمحمد عبد الله القضاعي الأندلسي المعروف بابن الأبار، ت: عبد السلام الهراس ط، د:المعارف الدار البيضاء (د– ت(
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري. ت: مصطفى بن أحمد البكري ومحمد عبد الكبير العلوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.
- تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء لابن خمير السبتي، ت: محمد رضوان الداية، (ط:1/1990) د:الفكر المعاصر، بيروت .
- تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهري، ت:محمد عوض مرعب (ط:2001/1م) د:إحياء التراث العربي بيروت .
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، د: الكتاب العربي للطباعة والنشر.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشي، ت: د: محمد بن شريفة ط: س: 1984 الأكاديمية المغربية .
- شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ،ت:عبد الكريم عثمان (ط:3/س:1996) مكتبة وهبة القاهرة .
- صحيح البخاري ت : د. مصطفى ديب البغا (ط:3/ 1987 ) د: ابن كثير،اليمامة.
- صحيح مسلم ت: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي، بيروت (د:ت)
- الفرق بين الفرق لعبد القاهر بن طاهر البغدادي (ط3/ 1977) د: الآفاق الجديدة، بيروت .
- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادى (ت:817ه) ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي (ط: 1426/8 هـ 2005 م) مؤسسة الرسالة، بيروت .
- القرآن و النظر العقلي فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل (ط:1/ 1981) نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية، رقم 7.
- قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان لكمال الدين أبو البركات المعروف بابن الشعار، ط:1/ 1990ت: فؤاد سزكين.

- لسان العرب لابن منظور ط:1 د: صادر بيروت.
- مجلة دار الحديث الحسنية (ع: 10)
- المستصفى للغزالي، ت: محمد عبد السلام عبد الشافي (ط1/ 1413) د:الكتب العلمية، بيروت.
- مسند الشاميين لسليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ت : حمدي بن عبد المجيد السلفي (ط:1984/1) مؤسسة الرسالة، بيروت.
- معاني القرآن للأخفش ت: د: فائز فارس ،(ط:1981/2) الكويت.
- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت:395هـ) ت:عبد السلام محمد هارون (ط:1991/1م) د:الفكر بيروت.
- المغني في أبواب التوحيد والعدل ت: محمد علي النجار، وزارة الثقافة، مصر.
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لعلي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن، تقديم: نعيم زرزور (ط2005/1) المكتبة العصرية، بيروت.
- مقدمات المراشد إلى علم العقائد لابن خمير السبتي، ت: د: جمال علال البختي (ط:2004/1) مطبعة الخليج العربي، تطوان .
- المقدمة لابن خلدون ت: درويش الجويدي (ط: س 1425هـ – 2005م) المكتبة العصرية بيروت.
- الملل والنحل لمحمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني، ت: محمد سيد كيلاني (ط1404/1) د:المعرفة، بيروت .
- الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي (ت:790هـ) ت: عبد الله دراز دار المعرفة بيروت.
- موطأ الإمام مالك برواية يحيى الليثي للإمام أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي، ت: محمد فؤاد عبد الباقي . د: إحياء التراث العربي، مصر.